

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

مدنيّة ، وهي ثلاث آيات.

تسميتها :

سميت سورة النصر لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ أَي الفتح الأكبر والنصر المؤزر الذي سمي فتح الفتوح وهو فتح مكة المكرمة. وتسمى أيضا سورة التوديع.

مناسبتها لما قبلها :

لما أخبر الله تعالى في آخر السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول عن دين الكفار ، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول ، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر ، حيث يصبح دين الأكثرين. وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر والفتح ، وانتشار الإسلام ، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه : دين الله ، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله صلى الله عليه وسلم.

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المدنية بالإجماع تشير إلى فتح مكة ، وانتصار النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين ، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، وانحسار ظلمة الشرك والوثنية ، والإخبار بدنو أجل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفره.

ج 30 ، ص : 446

فضلها :

تقدم في تفسير سورة الزلزال أنها في حديث الترمذي عن أنس بن مالك تعدل ربع القرآن ، وإذا زُلزِلت تعدل ربع القرآن.

وأخرج النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ قال : صدقت.

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرحلت ، ثم قام ، فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة ، أي خطبة حجة الوداع.

سبب نزولها :

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم. قال ابن عباس : فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون في قول الله عز وجل : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا. فقال :

ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم أعلمه الله له ، قال : إذا

جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلِكَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا فَقَالَ عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

ج 30 ، ص : 447

وقت نزول هذه السورة :

هناك قولان في ذلك :

أحدهما- أن فتح مكة كان سنة ثمان في رمضان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوما ، وتوفي في ربيع الأول سنة عشر ، ولذلك سميت سورة التوديع.

والقول الثاني- أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله صلى الله

عليه وسلّم أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ [القصص 28 / 85]. وقوله :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ يُقْتَضَى الْاِسْتِقْبَالَ ، إِذْ لَا يُقَالُ فِيمَا وَقَعَ : إِذَا جَاءَ وَإِذَا وَقَعَ.

وعلى هذا القول يكون الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخبارا بالغيب معجرا ، فهو من

أعلام النبوة « 1 » .

و الظاهر القول الأول ، بدليل ما قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة

الوطاع ، ثم نزلت اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي [المائدة : 3 / 5]

فعاش بعدها النبي صلى الله عليه وسلّم ثمانين يوما. ثم نزلت آية الكلاله (آخر سورة

النساء) ، فعاش بعدها خمسين يوما. ثم نزل لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة 9 /

128] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما. ثم نزل : وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

[البقرة 2 / 281] فعاش بعدها أحدا وعشرين يوماً.

وقال مقاتل : سبعة أيام « 2 » .

لكن قال الرازي : الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة « 3 » .

(1) تفسير الرازي : 155 / 32

(2) تفسير القرطبي : 233 / 20

(3) تفسير الرازي : 164 / 32

ج 30 ، ص : 448

فتح مكة [سورة النصر (110) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

الإعراب :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ تَقْدِيرُهُ : إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ ، فَحَذَفَ الْكَافَ الَّتِي هِيَ الْمَفْعُولُ .

وَجَوَابُ إِذَا إِذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. وَالْفَاءُ غَيْرُ مَانِعَةٍ مِنْ هَذَا عَلَى مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ ، أَوْ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، جَاءَ أَجْلُكَ ، وَهُوَ

الْعَامِلُ فِي إِذَا .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا يَدْخُلُونَ : جُمْلَةٌ فَعْلِيَّةٌ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى

الْحَالِ مِنَ النَّاسِ وَأَفْوَاجًا : مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنْ وَاوٍ يَدْخُلُونَ .

البلاغة :

إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ خاص بعد عام ، فإن نصر الله يشمل جميع الفتوحات ، قال الرازي : وهو الغلبة على قريش أو على جميع العرب ، فعطف عليه فتح مكة تعظيماً لشأنه.

وَرَأَيْتَ النَّاسَ عام أريد به الخاص ، فلفظ الناس عام ، والمراد به العرب .
دين الله هو الإسلام ، وأضافه تعالى إليه تشرifa وتعظيماً ، مثل : بيت الله ، وناقاة الله . إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا تواب : صيغة مبالغة على وزن (فَعَّال) .
المفردات اللغوية :

نَصْرُ اللَّهِ النصر : العون أو الإعانة على تحصيل المطلوب . وَالْفَتْحُ تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً أو موقوفاً ، أو الفصل بين الفريقين المتحاربين بانتصار أحدهما على الآخر ، والمراد به هنا فتح مكة ، فالفرق بين النصر والفتح : أن النصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف الفتح عليه .

ج 30 ، ص : 449

دين الله أي الإسلام . أفواجاً جماعات كثيفة ، كأهل مكة والطائف واليمن والهوازن وسائر قبائل العرب ، جمع فوج : وهو الجماعة والطائفة . وقد دخلت الجماعات في الإسلام بعد ما كان الدخول فيه فردياً واحداً بعد الآخر ، وذلك بعد فتح مكة ، جاءه العرب من مختلف الأنحاء طائعين . فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي نزه الله وصل له حامداً على نعمه ، روي : أنه عليه السلام لما دخل مكة بدأ بالمسجد ، فدخل الكعبة ، وصلى ثماني ركعات . وَاسْتَغْفِرُهُ أسأله المغفرة لك ولمن اتبعك ، وطلب الاستغفار من النبي كان لترك الأفضل ، وليقتدي به غيره ، ولم يكن بسبب ارتكاب معصية أو ذنب . و

كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول : « سبحان الله
وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه » .

وعلم بذلك أنه قد اقترب أجله ، فتوفي بعد فتح مكة بعامين سنة عشر .

التفسير والبيان :

إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ أي إذا تحقق لك يا محمد نصر الله وعونه وتأيدته على من
عاداك وهم قريش ، وفتح عليك مكة ، وتحققت لك الغلبة ، وإعزاز أمرك ، فسبح الله
تعالى أي نزهه حامدا له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك .
وفائدة قوله : نَصْرُ اللهِ مع أن النصر لا يكون إلا من الله : هو أنه نصر لا يليق إلا
بالله ، ولا يليق أن يفعله إلا الله ، أو لا يليق إلا بحكمته . والمراد تعظيم هذا النصر .
وقوله : جاءَ نَصْرُ اللهِ مجاز ، أي وقع نصر الله .

روى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال : لما نزلت إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ
وَالْفَتْحُ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نعت إلي نفسي »
فإنه مقبوض في تلك السنة .

خير ، وأنا وأصحابي خير » ، و

قال فيما رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن ابن عباس : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن
جهاد ونية » .

و

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس : أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم

فانفروا » .

ج 30 ، ص : 450

وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا أَي أَبْصَرَتِ النَّاسُ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ
يدخلون في دين الله الذي بعثك به ، جماعات فوجا بعد فوج ، بعد أن كانوا في بادئ
الأمر يدخلون واحدا واحدا ، واثنين اثنين ، فصلت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا أَي إِذَا فَتَحَتْ مَكَّةَ وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ ،
فاشكر الله على نعمه ، بالصلاة له ، وبترتيبه عن كل ما لا يليق به ، وعن أن يخلف
وعده الذي وعدك به بالنصر ، واقرن الحمد بالتسبيح ، أي اجمع بينهما ، فإن ذلك
النصر والفتح يقتضي الحمد لله على عظيم منته وفضله ، وما منحك من الخير .

و اطلب أيضا من الله المغفرة لك تواضعا لله ، واستقصارا لعملك ، وتعليما لأمتك ،
وكذا اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر
، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول
توبتهم ، وهو كثير القبول لتوبة عباده ، حتى لا يياسوا ويرجعوا بعد الخطأ .
روى الأئمة - واللفظ للبخاري - عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما صَلَّى رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِلَّا
يَقُولُ : سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » . وعنها قالت : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ،
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي . يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ » .
فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

1- كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله بما هو

ج 30 ، ص : 451

أهل له ، ومن أجلّ النعم على نبي الله وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء ، وفتح مكة عاصمة العرب والإسلام ، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين .
وتوج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات ، فوجا بعد فوج . وذلك لما فتحت مكة ، قالت العرب : أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، أي طاقة . فكانوا يسلمون أفواجا : أمة أمة .

2- لهذا ختم الله هذه السورة بأمر الله نبيه بالإكثار من الصلاة ، والتسبيح لله ، أي

تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ولا يجوز عليه ، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح ، وسؤال الله الغفران مع مداومة الذكر ، والله كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .
والأمة أولى بذلك ، فإذا كان صلّى الله عليه وسلّم ، وهو معصوم ، يؤمر بالاستغفار ، فما الظن بغيره ؟

روى مسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه ؟ فقال : خبّرني ربي أني سأرى علامة في أمّتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر

الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : إذا جاء نصرُ الله والفتحُ - فتح مكة - ورأيت الناسَ يدخلونَ في دينِ الله أفواجا ، فسبِّح بحمْدِ ربِّكَ ، واستغفرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا.

3- دين الله هو الإسلام لقوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران 3/19] وقوله : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران 3/85].

ج 30 ، ص : 452

4- قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين : إن إيمان المقلد صحيح لأنه تعالى حكم بصحة وإيمان أولئك الأفواج ، وجعله من أعظم المنن على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحا ، لما ذكره في هذا المجال.

)

5- أمر الله تعالى بالتسبيح أولا ثم بالحمد ثم بالاستغفار لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمال مثلا ، فالله ينزهه ويقدّس عن إهمال الحق. وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي صلى الله عليه وسلم بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

6- الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد ، حيث جعل كافيا في أداء ما وجب على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته من شكر نعمة النصر والفتح.

7- اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وروي أنه لما نزلت هذه السورة خطب صلى الله عليه وسلم وقال : « إن عبدا خيره الله

بين الدنيا ، وبين لقائه والآخرة ، فاختار لقاء الله « 1 » .
وقد عرفوا ذلك لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا دليل على أن أمر تبليغ
الدعوة قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك ، لكان كالمعزول
عن الرسالة ، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل.

(1) تفسير الكشاف : 3 / 365

ج 30 ، ص : 453